

تقرير

جبل محسن: حصار وضائقة معيشية واضطهاد

لا شيء يطمئن إلى أن الجولة الثامنة عشرة من الاشتباكات بين جبل محسن والجوار قد انتهت. وفي أحسن الأحوال، لا شيء يؤكد أن لا جولات جديدة ستندلع في الأيام المقبلة. ووسط هذه الأجواء يعيش جبل محسن داخل الحصار، وأهله يعانون ضائقة معيشية أخذت في التفاقم بعد اضطهاد تاريخي بدأ مع العثمانيين

روبير عبد الله

لم تحظ أية جولة من جولات الاشتباكات في طرابلس بما حظيت به الجولة الأخيرة من خوف وهلع لدى سكان طرابلس وزائريها على حد سواء. تفجيراً مسجدي السلام والتقوى في المدينة وبدء معارك القلمون في سوريا والاعتداءات على أبناء جبل محسن في طرابلس كانت تشي بمعركة وشيكة مقبلة. لذلك ما إن علا صوت الرصاص حتى فرغت شوارع طرابلس من المارة، وتراكمت السيارات على الطرقات الفرعية، فأحدثت اختناقات غير مألوفة، استدعت مناشدة القوى الأمنية تخفيفها، وجرى التعبير عنها في كثير

من مواقع التواصل الاجتماعي بعبارة بلغت حد توصيفها بـ«التاريخية». كل التصريحات عن توسيع صلاحيات الجيش - بما في ذلك الإشارة إلى وضع مئات العناصر من قوى الأمن الداخلي مع عرباتهم المدرعة بإمرته - لم تكن كافية لطمأنة السكان. ومن شدة القلق، افترض الناس أصوات الرعد الأولى إيداناً باستخدام سلاح نوعي في الجولة الموعودة. كان الاحتقان ولا يزال في ذروته على ضفتي النزاع الطرابلسي. ما اصطلح على تسميتهم أولياء الدم، لا يحول بينهم وبين المعركة سوى حل الحزب العربي الديمقراطي ومعاقبه مسؤوليه.

وبدورهم، أهالي جبل محسن صار بينهم أيضاً أولياء دم، بعد حادثة الاعتداء على الباص الذي كان يقل عمالاً من جبل محسن وإطلاق النار على أرجلهم، وحوادث أخرى لاحقة وسابقة، طالت أشخاصاً ومحال يملكها علويون في طرابلس. صبيحة اليوم الذي حصلت فيه حادثة الباص في مطلع الشهر الماضي، كما الأيام السابقة، منذ بدء خطة طرابلس الأمنية الأخيرة، كان جبل محسن أقرب إلى تكنة عسكرية. حواجز الجيش وألياته منتشرة في كل مكان، ومع ذلك، كان أهالي الجبل في حال ارتياب شاملة. لا يخرج أحدهم إلا لقضاء أمر ضروري.

يعرف سكان الجبل والتبانة وجوه بعضهم بعضاً. لذلك، بختار العامل في كل تنظيف البيوت ع. م. الطريق الرئيسية بين الملولة وساحة الختل. الطريق التي يتجنبها أغلب المارة، بالنظر إلى ما تتعرض له من قنص، هي الملاذ الأكثر

أمناً بالنسبة إلى ابن الجبل، شرط عدم خروجه بواسطة أي سيارة من سيارات الجبل، فهي معروفة بدورها. يتحرك ع. م. على متن دراجة نارية، يلتف حول بعض البنائيات، ويدلف إلى الطريق الرئيسية، حتى يبدو كأنه قادم من شمال المدينة. لا يزال عامل التنظيف يتردد إلى البيوت والمكاتب نفسها التي اعتاد تنظفها. لم يبدل أحد طريقة معاملته، «يعرفوا إني علوي، بس أنا

«قصة الاضطهاد بلشت مع العثماني وكلها الفرنساوي»

ما خصني بالانفجارات»، يقول ذلك، رغم عدم سؤاله عن تفجيري مسجدي السلام والتقوى، وكأنه يدفع عنه ضمناً تهمة التفجير التي باتت لصيقة بكل علوي في طرابلس. فالأخير أصبح مداناً، ليس حتى يثبت العكس، إنما لو ثبت العكس.

لا تقتصر الضائقة على العمال الذين باتوا يخشون ارتياد طرابلس، بل طاولت أصحاب المحال والمصانع في بيروت وجبل لبنان الذين استغنوا عن كثير من عمال الجبل بسبب تغييبهم عن العمل

خلال جولات القتال المتتالية. هكذا يصف أحد تجار الجملة أبو محمد فضة حجم الضائقة الاقتصادية التي تخيم على جبل محسن، ويضيف: «إن تراجع نشاط تجار الجملة أيضاً أدى إلى صرف الكثير من العمال». فهو بدوره أقفل صالة عرض لتجارة الألبسة بالجملة. تقع الصالة في شارع سكة الشمال، القريب من محور باب التبانة. المنطقة التي تعتبر «من أقوى المناطق التجارية»، لم تخسر زبائن الجملة فحسب، بل حتى سكان الجبل باتوا يترددون في الذهاب إليها بسبب رصاص القنص. أما التجار، يضيف أبو محمد، فقد خسروا أكثر من ثلاثة أرباع رساميلهم، وخصوصاً أن التجارة برأيه «راسمال ودين ومدين». يصف علاقته بتجار طرابلس بالجيدة، وهي لم تنقطع رغم جولات القتال المتكررة، لكن يحدث خلال المطالبة بسداد الديون أن بعضهم «يقلب فجأة». وعما يحكى عن دعم يتلقاه أهالي الجبل باعتبارهم جزءاً من فريق سياسي، قال أبو محمد: «قديماً كنا نقول صيت غني ولا صيت فقر، لكن اليوم صارت الحقيقة إنو صيت فقر أعلى من 600 صيت غني». في جبل محسن، يحرق السكان بأي وأقد جديد. ومع ذلك يتجنبون مضابقتهم، رغبة منهم بتحريك عجلة السوق، في واحدة من ساعات الهدنة، كان بضعة رجال في أحد مقاهي جبل محسن، أمام مستوصف حركة الشباب. لا بد من جهد لإقناعهم بالتحدث عن تفاصيل الحال، فيقول أحدهم: «الجبل مطوق، والحالة ميئنة». ويضيف: «مبارح ضرب فلان وقبله طعن غيره بسكين» وعلى أية حال «بتقدر تشوف محسن عابد» (أحد المسؤولين في

الحزب العربي الديمقراطي) للحديث عن مجمل الوضع. يقيم عابد في إحدى البنائيات المواجهة لمحور المنكوبين. يقع المنزل خارج المنطقة الآمنة (نسبياً) من الجبل، أي بعد بوابة كبرى تحجب الشارع الرئيسي، وتحمي المارة من رصاص القنص. البوابة عبارة عن ألواح معدنية مغطاة بالألواح كاو تشوك تدخلها أسلاك معدنية، وهي مركبة على دواليب، تسمح لها بإقفال الشارع كلياً، عندما يشد القنص.

بسؤال عابد عن الوضع المعيشي، يقول: «عنا ضيقة؟ نعم، مزعجين كثير»، ويستطرد في شرح ما لحق بالطائفة العلوية من حرمان، بقوله «القصة مش علوي وسني، هي قصة اضطهاد بلشت مع العثماني وكملها الفرنساوي، والدولة اللبنانية عملت سقف الوظيفة للعلوي عامل تظيفات ولو كان معه إجازة جامعية». ثم يشرح ما لحق بعلوبي طرابلس من تهجير مع بداية الحرب الأهلية، ليعودوا إلى طرابلس مع دخول قوات الردع العربية إلى لبنان، وأن بداية إنصاف العلويين حدثت مع اتفاق الطائف الذي منحهم مقعدين نيابيين، ومع ذلك لم يحصلوا على وظائف مرموقة في الدولة.

وعن الوضع الميداني يقول: «سقوط جبل محسن يعني حرباً أهلية، هيدا بالمبدأ، ومن ناحية ثانية: ما حدا بيقدّر يفوت ع الجبل». ويرأيه ما يجري محاولة دولية لإقامة حزام معاد لسوريا، يمتد من بلدة القلمون جنوبي طرابلس حتى منطقة القلمون في ريف دمشق، كمعادل للمقاومة بوجه إسرائيل في الجنوب اللبناني.

أصوات الانفجارات ترفع منسوب القلق من دون أن تغتير في مسار حياتهم (هيثم الموسوي)



علويه السهل ينقص عيشهم حصار الجبل

الطائفة، يعرف مؤيديه ومعارضيه، بقيم في قرية صغيرة تتوسط سهل عكار، بمعنى الجغرافيا الطبيعية عموماً، وبالمدلول العلوي خصوصاً. يقول رئيس بلدية تلبيرة عبد الحميد صقر، وهو البعثي الذي طالما اتسمت علاقته بالحزب العربي الديمقراطي بالبرودة، إن استهداف علي عيد استهداف للطائفة برمتها، ولرمز وطني. وإن يؤكد صقر أولوية البعد الاجتماعي في العلاقة بين مكونات السهل بمختلف تلاوينه، يستبعد انزلاق الوضع في عكار، وفي السهل خصوصاً، إلى ما يشبهه في طرابلس، بالنظر إلى تداخل المصالح بين أبناء المنطقة ووعي أبنائها لضرورة المحافظة على العيش الواحد. ثم ينتقل إلى وصف جغرافية السهل: «سهل عكار هو السهل المعروف في عكار، بالإضافة إلى السهل السوري وصولاً إلى مدينة طرطوس، والذي يحمل تسمية سهل عكار نفسها». وبالعنى العلوي، يعدد صقر بعض القرى العلوية في الجانب السوري مثل خربة الأكراد، الدقار، بني نعيم، الحسنة، كرتو العزيفية، متحدثاً عن روابط القرابة والمصاهرة والعائلات الواحدة المقيمة على جانبي الحدود، مستهزئاً بما أشيع عن مرابطة دبابات سورية على الحدود.

قرية حكر الظاهري الصغيرة تسبقها من الجانب اللبناني بلدة الحيصا حيث ترفع صورتها الرئيس السوري بشار الأسد والأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله، بعلو طابق في إحدى البنائيات على الطريق المؤدية إلى الحدود من ناحية معبر العبودية، وتسبقها أيضاً بلدة المسعودية التي تتوسط ساحتها الرئيسة لوحة حجرية، تجمع من ناحيتها صور: القيادي التاريخي في الثورة السورية ضد الاستعمار

لم يحدث أن شعرت الطائفة العلوية في سهل عكار بنقل الحدث السوري وانعكاساته اللبنانية كما يحصل اليوم. لطالما كان أبناء الطائفة يترقبون ما يحدث في طرابلس، بين باب التبانة وجبل محسن. أما من الجهة السورية، فكانت أصوات القذائف ودوي الانفجارات ترفع منسوب القلق من دون أن تغتير كثيراً في مسار حياتهم اليومية. وفي الحاليتين، كانوا يمارسون ضيقاً ذاتياً لتحركاتهم، فيخففون من توجههم نحو طرابلس، تماماً كما يفعل المقيمون في جبل محسن من أصول عكارية إذا ما أرادوا تفقد أهلهم أو قضاء مصلحة لهم في سهل عكار. وبدرجة أقل، كانوا يقللون من تجوالهم في بعض المناطق العكارية، خشية التورط في حادث مفاعل، فيؤجلون عملاً، ريثما تنتهي جولة اقتتال في طرابلس، وفي انتظار جلاء غبار معركة بين الجيش السوري والمعارضة في إحدى المناطق القريبة من الحدود.

حادثة خطف وحيدة لعلويين جرت في وادي خالد على خلفية تسليم أحد أبناء الوادي للنظام السوري انطلاقاً من سهل عكار. وقد تكفّلت فعاليات المنطقة من مختلف الطوائف بحلها، فحالت دون تطورها إلى حالة استفطار شاملة. وعلى المنوال نفسه، جرى تطويق ذبول خطابات مذهبية حاول إشعالها أحمد الأسير إثر تشييع الفتى ماهر حمد في قرية العريضة الحدودية التي تشهد تنوعاً مذهبياً. لكن أهالي القرية، وبخاصة أولياء الدم، كانوا أشد حرصاً في درء الفتنة عن قرينهم. فجأة قفز الحدث إلى أبعد المناطق في القسم العلوي من سهل عكار، في قرية حكر الظاهري على الحدود السورية. رأس الطائفة صار مطلوباً. مؤسس الحزب العربي الديمقراطي علي عيد، زعيم

العلوية في بعض قرى الدريب الأوسط والأدنى. يقول عبد الله موسى «نحن جماعة فقرا ليش تنفوت بمناهاات»، ينشط موسى في قرية الحوشب التي تقام فيها مئتا أسرة علوية مقابل 500 أسرة سنية. يهتم موسى بقضايا النازحين السوريين، لديه بعض الحظوة في وزارة الشؤون الاجتماعية، بحكم انتمائه إلى الحزب التقدمي الاشتراكي. يقول «أنا عايش بين الجماهير»، ويعيب على كوادرحز البعث العربي الاشتراكي «بعدهم عن الناس»، ويذكر أنه يوم كان العقيد نبيل حميشي مسؤولاً في مفرزة الأمن في عكار، ذكره بقول الرئيس الراحل حافظ الأسد في خطاب له في العام 1976 «لو أن كل عسكري سوري وكل بعثي في لبنان صادق لبنانياً لأصبح لبنان كله بعثياً»، والكلام، يضيف موسى، قاله في حضور مسؤولين من حزب البعث، كانوا يتحضرون في مفرزة الأمن لإحياء مهرجان ضد القرار 1959، وفي حينه سألهم إذا كان عناصر الحزب المكلفين بتأمين الحشد يعرفون مضمون القرار، محذراً إياهم، بحسب قوله: «إذا راح تبقوا هيك بدين تاكلو قتل كثير».

ر.ع.

في ساحة البلدة. يعلق على استدعاء النائب الأسبق علي عيد للتحقيق معه بتفجيري طرابلس بقوله «عملية الأستاذ علي مركبة بالمية مليون». يتذكر «الفقر الأسود» يوم كان المزارعون لا يملكون شيئاً، و«إذا زعل البيك كان بإيام الشتاء يقلعنا من بيت التراب، وكنا نحط مشمعات على خيمة القصب ونسكن فيها»، وكان وكيل البيك إذا «شاف شاب مع صبية»، يسطو على ثور وعجل كـ«شرفية لستان البيك». اليوم بعد أن هاجر أبناء محمد علي «لولا عفو الله والأولاد بهلك من الجوع». ومع ذلك «يا محلا أيام البيك، وقتها ما كنا نسمع هيدا سني وهيدا علوي». شهادة العلي، شقيق رئيس بلدية المسعودية، يرى أن الدولة اللبنانية طالما كانت تستر تقصيرها تجاه أهالي السهل عبر افتعال انقسامات المذهبية وتعزيزها، مستذكراً عنوان مقالة في مجلة «الحوادث» تعود للعام 1969 «ثورة الفلاحين أم غضبة العلويين»، علماً - يضيف العلي - بأن يوسف عويد من بلدة الشيخ عياش كان ملاحقاً من قبل أجهزة الدولة، واليوم ابنه ناشط في تيار المستقبل. خارج السهل، تقام قلة من أبناء الطائفة

يربط الجانب اللبناني والسوري من سهل عكار علاقات قريبة ومصاهرة

الفرنسي صالح العلي رمز الطائفة العلوية، والراحل حافظ الأسد مع أبنائه ومن بينهم الرئيس الحالي بشار الأسد. وبهذا المعنى تصبح قرية زعيم الطائفة علي عيد المقر الذي يمد البلدات والقرى المحيطة بها بقوة معنوية سندها المادي العمق السوري، بدءاً من سهل عكار السوري، لا سيما البلدات العلوية المنتشرة على الحدود من الجانب السوري، وصولاً إلى الارتباط المصيري بالدولة السورية.

في بلدة المسعودية يجلس الرجل السبعيني أبو حاتم محمد علي في منزله